«صمت» صارخ في البرّيّة

نوع آخر، تتعلّق بالفساد والحب والرَّغبة والحرية، المفردات التي أهملها في نصوصه المسيّسة، محمولة على هتاف شعري، وسرد متوتر، لا يعبآن بمتطلبات العرض المسرحي، إذ «تضطرب الرؤية ويختلّ اليقين». وسوف تهتف «غادة» بطلة مسرحية «أحلام شقيّة» قائلةً «أين الشعر في هذه الدنيا؟ لا الحلم ممكن، ولا التمنّي ممكن. لا شيء إلا الظلم والموت». هكذا نتعرّف إلى شخصيات تتأرجح فوق حبال الرغبة والانعتاق والانتحار، في محيط عائلي مضطرب، كترجيع لمشكلات كبرى تنطوي على حطام جمعي، ووجع تاريخي يتناسل من شقوق جدران آيلة إلى السقوط، فالتمرّد لديه لم يعد المحرّض الأساسي في الكتابة، بقدر اهتمامه بتعرية أمراض مجتمع مكبّل بأصفاد الأعراف والتقيّة والزيف. هكذا تتلاقى في أعماله، وفقاً لما تقوله خالدة سعيد «صنعة الحرفي، إلهام الرائي، ذخيرة الحكواتي، بصيرة المحلّل وموهبة ابتداع الأساطير والرموز. مهندس منظومات ورؤى، رسّام مسارات عبور وتحوّل، صانع كنايات وأمثولات ونحّات رموز». ولكن ماذا لو شهد سعد الله ونوس مشهد خريطة البلاد وهي تتمزّق تحت وطأة الحرب الشرسة، وما هي المراجعة التي سيقوم بها لنصوصه ومواقفه؟ وماذا سيقول عن مسرح يحتضر، وساحة ثقافية تحرسها فزّاعات محشوة بالقش، ومصحة عمومية للجنون؟ هل سيعيد صرخة بطل مسرحيته «الأيام المخمورة»: «ما أشدّ وحشة هذا العالم»، أم يواجه «أبو سعيد الغبرا» الذي خرج من قبره مرّة أخرى، كي يتهم أحفاد أبي خليل القباني، بنشر الفسق والمراذل؟ فواتير كثيرة تراكمت في غيابه الـ 18، من دون أن يسدّدها تلاميذه، أو أن يجيبوا عن أسئلته الأخيرة «أيقنت أنّ في العائلة دملاً يتستّر عليه الجميع، وأيقنت أنّي لن أستقر في اسمي وهويتي إلا إذا اكتشفت الدمّل وفقأته»، كما سيفتش عن الحقيقة، وإذا بها «إبرة في مزبلة» («الأيام المخمورة»). هذا التحوّل في اهتماماته، يستجيب عملياً إلى شكوكه وقلقه حيال السرديات الكبرى التي انخرط فيها طويلاً عبر مروحة واسعة من العتبات المسرحية التي خاضها بيقين المثقف التنويري، لجهة توظيف أشكال الفرجة التراثية، واستثمار شخصية الحكواتي، واقتباس الحكاية الشعبية، إلى مساءلة السلطة والتاريخ، ثم مغامرة التجريب، وصولاً إلى السرديات الصغرى المتمثلة بشؤون الفرد المقموع، وربطها عضوياً بما هو جمعي، مغلقاً الدائرة على أسئلة الهويات الصغرى وسياقاتها العامة المضطربة، من دون إسراف درامي، منشغلاً في التنقيب عن الدامل التي أرهقت الجسد المأزوم والمُهان والمكبّل بألفِ حبلٍ وحبل.

في رسالة أخيرة إلى صديقه إبراهيم وطفي يخبره فيها عن إصابته بالسرطان، يقول «لستُ قلقاً. ولا أعتقد أني سأموت. ولكن لو متّ فستكون بعصة كبيرة. لأن مشروعي الجدّي لم يتبلور إلا في السنوات الأخيرة. وهو ليس ورائي، بل ما زال أمامي. ومع ذلك، لن تكون البعصة مهمة. وفي الواقع، لم يبقَ إلا ما يبعص». في ذكراه، سوف نسأل مجدّداً: ما مصير مذكراته التي أنجزها قبل رحيله في عشرة دفاتر، وهل سترى النور قريباً، أم ستبقى طي الأدراج، وفي ذمّة التاريخ؟

يزن الحاج

أين تكمن أهميّة سعد الله ونّوس؟ ربما كان هذا هو السؤال الأهم الذي ينبغي طرحه بعد 18 عاماً على غياب ونّوس لنستطيع إعادة قراءة أعماله بعينين جديدتين. يتوازى هذا السؤال مع سؤال آخر لا يقل أهميّة: ما سبب الموقف السلبيّ من ونّوس الذي تشاركت فيه أسماء من السّلطة والمعارضة بعد رحيله، وخاصة في السنوات الأخيرة؟ يتبدّى هذا الموقف السلبيّ على مستويات عدة، ليس أقلّها التهميش المتعمّد لنتاجه، وصولاً إلى تسخيف عمله، أو الهجوم الصريح أحياناً على حياته وأعماله ومواقفه. لا يتّسع هذا المقال - بالطبع - للبحث في جميع هذه النقاط رغم أهميّتها البالغة، وخاصة في ما يتعلق بقضايا المعارضة ومعانيها وتعريفاتها، والنقد والإبداع

> لن نجد هذا الفارق بين آذار 1963 وآذار 2011، برغم كون الثاني مضاداً للأول

والثقافة؛ ولكن سيسعى المقال إلى التركيز على نقطة لم تُناقش بعد بكليّتها، وخاصة بعد الانتفاضات العربيّة، ومعنى المثقف، ودوره في كل ما يجري.

لعلّ أبرز صفة يمكن أن نلحقها بعمل ونّوس، الإبداعي والنظري، هي المصطلح الذي سكّه ونّوس بنفسه: أي «التسييس». من المفارقة ربما أنّ هذا المصطلح المهم لم يكتسب حضوراً قوياً رغم شهرته الطاغية. تكاد لا تخلو أيّ مناسبة يرد فيها اسم ونّوس دون إلحاق هذا المصطلح به، ومع ذلك لا نجد بحثاً جدياً، أو مريدين حاضرين، للتسييس. ينطلق ونّوس من حقيقة أنّ الطبقة الحاكمة مسيَّسةٌ أصلاً وتعمل - في الوقت ذاته - على نزع السياسة من حياة المحكومين، لذا شدّد على أنّ أهميّة المسرح (والفن عموماً) تكمن في الرغبة الفعليّة في إعادة السياسة إلى حياة المحكومين كي تصبح الطبقات الشعبيّة مسيَّسةً من جديد، وهو شرط لازم للشروع في أيّ عمليّة تنويريّة. سياسة ضد سياسة، وتسييس ضد تسييس: هذا ما يجب أن تكون عليه المعادلة للانطلاق بمجتمع صحيّ. تتعاظم أهميّة هذا المصطلح في التحوّلات المتعاقبة للمجتمع، وفي التغيّرات التي تصيب جوهر الصراع بين الحاكم والمحكوم، أو بين المحكومين أنفسهم. وتتعاظم أهميّة ونّوس كذلك حين نلاحظ بأنّ سمات عقدي السبعينيات والثمانينيات (وهما العقدان الأهم في تاريخ سوريا خصوصاً) تكاد تتطابق مع سمات السنوات الثلاث الأخيرة على نحو خاص: أي السنوات التي تلي الحركة «الثوريّة». في العمق، لن نجد هذا الفارق بين آذار 1963 وآذار 2011، برغم كون الثاني مضاداً للأول. حين يتم «تمييع الصراعات داخل المجتمع وتمويهها بصراعات أخرى ملتبسة، كأن يتحول ما هو طبقيّ إلى طائفي، وما هو وطنيّ إلى إقليميّ»، سيكون المثقف بالذات هو صاحب المسؤوليّة الأكبر عمّا سيجري في ما بعد، أو - بحسب تعبير ونّوس - «يجب المرور عبر هذا الخراب ومواجهة ما هو سائد، حتى لو بدونا كأننا نتجاوز مستوى وعي المتفرّج أو نعلو عليه». إذاً، التابو الاجتماعيّ هو التابو الذي يجب كسره أولاً، ومن بعده ستبدو التابوات الأخرى هشّة بالضرورة.

يأخذ كثيرون على ونّوس «استسلامه» أمام هذه المتغيّرات، وتوجّهه إلى عزلة شبه تامة، رغم كونه صاحب التسييس، والمسرحيات التي تحضّ على التغيير بشكل واضح. هنا بالذات وقع كثيرون في فخ الفهم السطحيّ. لم تكن عزلة ونّوس هروباً، بقدر ما كانت فترةً ضروريّة لإعادة التفكير، وجرد الحسابات، والتمهيد لما سيأتي لاحقاً. صمت لا يقل تأثيراً عن الصراخ، بل هو «صمتٌ صارخٌ» رغم المفارقة التي تنطوي عليها هذه العبارة. حين نراجع فترة صمت ونّوس، سنجد أنّه توقّف فيها عن الكتابة الإبداعيّة تحديداً، بينما استمر أو أطلق مشاريع أخرى لا تقل أهميّة عن النتاج الإبداعيّ. ظهر المسرح التجريبيّ في سوريا للمرة الأولى على يد ونّوس والراحل فوّاز الساجر؛ شهدت فصليّة «الحياة المسرحيّة» أزهى أيامها على الإطلاق، وأعاد ونّوس قراءة التاريخ تحضيراً لأعمال مسرحيّة بعد عقدٍ كامل، ستكون هي أفضل ما كتبه، وخاصة «منمنمات تاريخيّة»، و«طقوس الإشارات والتحوّلات»، وعمله السرديّ الوحيد «عن الذاكرة والموت».

في فترة الصمت هذه التي كان سببها الأول (بعيداً عن الأسباب السياسية العامة) «استرداد «لا» المقموعة»؛ هذه الـ«لا» التي تعني «لا لـ«نعم»، ونعم هي التعريف السلطويّ للمواطن العربيّ من المحيط إلى الخليج»، قام ونّوس بإجراء عملية نقد ذاتيّ في المشهد الثقافيّ العربيّ بلا استثناء. لم تكن عملية النقد هذه مشابهةً لحالات «الردّة» التي روّج لها كثيرٌ من المحسوبين على اليسار بداية التسعينيات، بل كانت الفترة الضروريّة لصقل الأفكار الوطنيّة والتقدميّة كي تتم إعادة طرحها بأسلوب مغاير. هذا ما وجدناه في السلسلة المهمة «قضايا وشهادات» التي أطلقها ونّوس مع عبد الرحمن منيف وفيصل دراج (ثم جابر عصفور)، وهذا ما لاحظناه بقوّة في التغيّرات الضخمة التي لحقت بأسلوب ونّوس في الكتابة. لم يتخلّ ونّوس عن الأيديولوجيا التقدميّة (لا بأس هنا من التأكيد على هذه المصطلحات «الخشبيّة»)، بل ألبسها حلّةً جديدة لم تنتقص من جرعة التقدّم، بل أضفت عليها نزعة جماليّة كانت غائبة عن أعمال ونّوس الأولى. تخلّى ونّوس عن «الربط بين الفعاليّة الإبداعيّة والفعاليّة السياسيّة» بمعناها المباشر، ليؤكّد أنّ «العمل الذي يشفّ عن جماليّة جديدة يوازي الآن في أهميّته عملاً يجيش بالمقولات السياسيّة الصادحة».

بعد فترة الصمت التي كانت (وأصبحت الآن) ضروريّة، أصبح سعد الله ونّوس أهدأ، وتناسى أعماله القديمة، لا بمعنى التخلّي عنها، بل للانطلاق بأعمال أخرى لا يكون همّها أن «تُكتَب لمرّة واحدة... وإما أن تنتهي بتظاهرة أو تنتهي إلى عمل مسرحيّ عادي ثم تُطوى»، كما هي عليه الحال مع «حفلة سمر من أجل 5 حزيران»؛ أعمال تبدأ بالصمت وتنتهي ربما بالصمت، ولكنّها ستبقى مفتوحةً دوماً على آفاق جديدة، وقراءات متعدّدة، ودلالات متنوّعة، كما يُفترَض أن يكون عليه الفنّ الحقيقيّ.

المعلّم والإنسان

ميسون علي *

ينتمي سعد الله ونوس إلى جيل من الكتّاب والمثقفين العرب الذين عاصروا لحظتين مهمتين في التاريخ الحديث للأمة العربية: لحظة صعودها، ولحظة انكسارها. تمثّلت لحظة الصعود في المد الواسع الذي شهده الفكر القومي والتقدمي العربي، وتجلّت لحظة الانكسار بعمق في هزيمة حزيران 1967 التي كانت بمثابة زلزال مريع،

> علّمنا كيف نعيد النظر والتفكير في رؤى صارت مع الزمن من المسلّمات

أعقبه تمزقٌ واهتراء أصابا مختلف مؤسسات المجتمع العربي وبناه. في مثل هذا السياق التاريخي الملتبس، عاش سعد الله ونوس ومارس نشاطه الفكري والإبداعي مُتغلغلاً في شرايين النسيج الاجتماعي. وهو مثله مثل معظم أبناء جيله، كان صاحب مشروع رؤيوي كبير، يتسم بعمق نافذ، ووضوح باهر، ونبل إنساني شامل. مشروع يهدف إلى تغيير العالم، وينطلق من موقف نقدي واع وعميق لمشكلات الأمة ومؤسساتها وبناها الاجتماعية المختلفة. وقد اخترق هذا المشروع الفكري والرؤيوي أعماله المسرحية جميعاً، من مسرح التسييس إلى مسرحة التحولات والانهيارات، وكانت كتاباته النظرية والنقدية تُشكّل رافداً يُغني مشروعه الفكري والإبداعي قوة وصلابة وعُمقاً. من جانب آخر، مارس ونوس التدريس في «المعهد العالي للفنون المسرحية». ولأنه كان يؤمن ويفهم المسرح على أنه أداة فعّالة في المشروع التنويري، فقد كانت المشاركة في تعليم جيل يدرس المسرح هو جزء لا يتجزأ من مشروعه. وفي هذا السياق، أراني في ما أكتب أتناول الخاص في علاقتي وأبناء جيلي من الطلاب بسعد الله ونوس المُعلّم والإنسان. الخاص الذي يعدّ تاريخاً لولادة زمني الآخر، زمن تعرّفي إلى المسرح، يوم كان يلقانا طلاباً يشارك بحماسة في تكوين وعيهم المعرفي. لقد كسر سعد الله ونوس، ببراعة وعلمية، تلك العلاقة التقليدية بين المُحاضر والطلبة، فحرّرنا من ذلك الشعور بالرهبة من أننا إزاء كاتب كبير، وكان يُشرّع أمامنا نوافذ ترينا من المسرح ما لم نكن نراه. ولم يألُ جهداً، بل ويُصرّ رغم انشغاله، على متابعة ما نقوم به خارج إطار الدرس، انطلاقاً من إحساس فريد ونبيل بالمسؤولية تجاهنا. في منزله المتواضع، إلا من حضور الثقافة فيه، كان يشع فرح لقائنا به، ليناقشنا في نصوص كتبناها أو مشاريع مسرحية ننوي الانخراط بها. بينما أكتب هذه الكلمات، يُخيّل إليّ أن أستاذي سعد الله ونوس لم يغادر مكانه في تلك القاعة الصغيرة المُطلة على الحديقة، في «المعهد العالي للفنون المسرحية»، حيث كنا نتابع نحن طلاب قسم الدراسات المسرحية محاضراته في المسرح العربي والكتابة المسرحية. يومها كان غارقاً في البحث عن مسرح عربي جديد، فتحوّلت محاضراته إلى نقاش طويل لا يركن إلى المسلّمات والأفكار الجاهزة. علّمنا كيف نعيد النظر والتفكير، في رؤى صارت مع الزمن من المسلّمات، وفي آراء كرّسها باحثون معروفون حاولوا فيها ليّ عنق نصوص تعتبر من أيقونات التراث العربي كي يثبتوا أنها مسرح، منطلقين في هذا ليس من هاجس علمي مسرحي، إنما من سؤال كيف أعرّف نفسي إزاء الغرب! علّمنا سعد الله ونوس أن لا مبرّر للشعور بالنقص الذي ساد لدى معظم المسرحيين، لأن العرب قديماً لم يعرفوا المسرح بمعنى النص الدرامي، فلكل جماعة بشرية خصوصيتها في تحديد ضروراتها، وأنه كان لا بدّ من تضافر عوامل تاريخية يتجاوز مداها المشكلة الثقافية الصرفة حتى نعرف المسرح. لم يكن التعليم بالنسبة إليه تلقيناً جاهزاً ومُعطى، بل محاولة للكشف عن آليات يُمكن أن تهيئ الأذهان لاستكشاف الصواب، أو تتأمّل الإشكالية التي يطرحها. تعلمنا من سعد الله ونوس احترام التعددية، وأن نتمسّك بالمسرح لأنه يوقظ انتماءنا إلى الجماعة. تعلمنا منه وهو على تخوم العمر، أننا في الكتابة نُقاوم الموت ونُدافع عن الحياة.

* أكاديمية وناقدة سورية